



عبد أحميد الديب شاعر البؤس والحرمان

يختلف الشعور بالمعاناة من شاعر إلى آخر.. وتتعدد أسباب هذه المعاناة وتتراوح بين الأسباب الخاصة بالشاعر نفسه وحياته القاسية.. والأسباب العامة التي تتعلق بالمجتمع وعدم تربيته لرغبة الشاعر.

وحياة الإنسان أيضا تتراوح بين قطبي السعادة والشقاء.. ويبدو أن صدق الشاعر مع نفسه ينعكس على إبداعه.. ويعتقد كثيرون أن المعاناة وقسوة الحياة والعجز عن تحقيق حلم الشاعر.. كل هذا يجعل منه شاعراً حزيناً.. عاشقاً للشجن والشكوى.. ويرون أن مثل هذا الشاعر قد يكون أفضل وأصدق من شاعر لا يعاني قسوة الحياة

لكن هذا الأمر ليس صحيحاً دائماً.. فالتاريخ الأدبي يحكى عن شعراء عاشوا في الترف والثراء.. وكانوا صادقين في أشعارهم بل ربما نالوا شهرة أكثر من هؤلاء الذين عانوا قسوة الحياة ومنهم على سبيل المثال: امرؤ القيس.. والمتنبي.. وأحمد شوقي وغيرهم..

والشاعر القديم كانت له طرقه وأساليبه للخروج من محنة الفقر أو الجوع أو التشرد.. فيكفيه أن يمدح حاكماً.. أو شريفاً وينال منه جائزة تعينه على الحياة.. أو يرصد له راتباً شهرياً يخرج منه من محنته.

أما الشاعر المعاصر فتأبى عليه كرامته - غالباً - في التودد إلى الأثرياء أو الحكام.. وإن كان مثل هذا السلوك قد يبرره بعض الشعراء بأنه نوع من



الحب لما يقدمه هذا الحاكم أو هذا الشريف للناس من خدمات ومنافع عامة..

لكننا اليوم مع شاعر صاحب البؤس والحرمان والجوع ولم يستطع أن يجعل شعره منقذاً له من هذه المحنة إلا بالقدر اليسير.. بل لم يشفع له كونه شاعراً أصيلاً أن ينال تقديراً من السادة أو الحكام أو الأثرياء يخلصه من معاناته.

لقد ولد عبد الحميد الديب في أسرة فقيرة بقرية (كمشيش) منوفية وذلك في عام 1898 لأب يعمل تاجراً يبيع الماشية ولحومها في المواسم والأعياد.

ألحقه أبوه بكتاب القرية وكان سريع الحفظ للقرآن الكريم ثم يدفعه إلى الأزهر.. لكن الفتى يتركه إلى دار العلوم لأنه كان يميل إلى دراسة اللغة والأدب أكثر من ميله للدراسات الدينية.

وفي دار العلوم يتفجر الشعر على لسانه ويلمع بين الشعراء الطلاب.. ويعجب به أساتذته.

لكنه لم يطق ولم يتحمل تحصيل العلم.. فهجر الكلية.. ومل صحبة العلماء.. وظل يتأمل الحياة من حوله فوجد الأثرياء يتمتعون بحياة الرخاء والثراء.. والفقراء مثله يعانون الجوع والحرمان.. ووجد نفسه في غرفته الضيقة الخاوية القدرة لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى القبض على الريح:

أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها

فأرجله أمضى من الصارم الهندي



تساكننى فيها الأفاعى جريئة
وفى جوها الأمراض تفتك أو تُعدى
ترانى بها كل الأثاث فمعطفى
فراش لنومى أو وقاء من البرد
وأما وساداتى بها فجرائد
تجدد أو تبكى على حجر صلد
تحملت فيها صبر أيوب والضىنى
وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى

لقد كانت غرفة عفنة خالية من الأثاث.. قدرة.. تأوى الحشرات
والأفاعى.

ويفتح عينيه على واقعه المؤلم.. ترى ماذا يفعل.. أخذ يمد يده إلى
الأغنياء.. فلم يحظ منهم سوى بالقليل.. لم يجد أمامه إلا حياة التشرد
والنوم فى المقاهى العامة.

وحينما كان يحظى بعمل.. يسبقه إليه حظه السيئ فيخرج منه إلى حياة
الصعلكة والتسكع والبؤس والحرمان مرة أخرى.. يلبس رث الثياب..
ويعضه الجوع ليل نهار.

وكثيرا ما كان يهرب من قدره هذا إلى دار الكتب ويظل طوال يومه يقرأ
كتب الشعر والتراث القديم.. لعله يتناسى ألامه وحرمانه.



وأحيانا أخرى يتسكع بالليل في مقاهي العاصمة ويشرب حتى
الشمالة.. ويقضي يومه نوماً في المساجد حتى يوقظه الناس ويطرده.. أو على
حد قوله:

نهاري إمانومة بين مسجد
غراراً وإما بالطريق تسكعُ
وأطوى عصي الليل في القر ساعياً
ومن أين للأفاق في الكون مهجعُ
إذا أذنوا للفجر طرتُ مسرةً
إلى مسجد فيه أصلى وأضجعُ
أصلى بوجدان المرائي وقلبه
وبئس صلاة يحتويها تصنعُ
أمر على المقهى فأسمع شامتاً
يمزق في عرضي وآخر يشفع
وقد ساء ظني بالعباد جميعهم
فأجمعت أمري في العداء وأجمعوا

وفي حي الزهار مضت المحنة إلى غايتها.. فقد اعتصر المخدر شبابه..
وظل يختلف إلى أصدقائه يرهقهم بالسؤال ويلاحقهم بالإلحاح.. وهم
يلبون حيناً.. ويعرضون عنه حيناً آخر.



ويأس الديق من عون الناس من حوله.. لكن هل تكفى موهبته
لمواجهة الحياة؟

لقد أدرك أن المجتمع لا يعترف بهذه الموهبة.. وربما وجد في التشرد
والسكر ما يفرغ فيها همومه وآلامه.

يقولون لى: كيف الشقاء مع الحجا

وفي شعرك الهامى عذاب المناهل

فقلت بهذا الشعر بؤسى وشقوتى

كما قتل الصداح زهو الخمائل

فلا تسألونى عن دمائي وسفكها

سلوا بدمى الغالى جريمة قاتلي

ولم يكن عجباً أن يكون الديق صيداً ثميناً لرجال الشرطة حيث قبض
عليه بتهمة السكر والتسكع.. فزج به فى السجن مع الدهماء المجرمين.

وهناك فى السجن تناقضت مشاعره.. وهو الشاعر الكبير الأصيل
الذى صار أحد مجرمي السجنون.. لكنه هون على نفسه وهو الذى لا يجد
مكاناً يأويه.. فها هو الآن فى بيت جديد.. ولعله لا يجد فرقاً بين ما حرمه
منه المجتمع.. وبين ما دفعت به العدالة.. فقد وجد فى سجنه المأوى
والطعام والكساء.

أترى كان الشاعر يحس أنه فى عالم الحرية بعيداً عن سجن المجتمع
وتشرده فى طرقاته.



يحكى الديق هذه التجربة إلى صديقه د. عبد الرحمن عثمان.. وكيف أنه استطاع أن يعرف الطريق إلى قلب (سعادة مأمور السجن) وقد كان رجلاً رقيق الحس.. يحب الأدب ويحنو على الأدباء.. فتوقفت بينهما عرى الصداقة والألفة فنال الشاعر من عطفه الشيء الكثير.

وقد سمح المأمور للشاعر بالقلم والورق ليكتب ويعبر عن مشاعره كيف يشاء.. وها هو يعبر عن حالة السجن والسجناء بقوله:

له بفؤادى لذةٌ ووجيبٌ
وفيه لقلبي بلسمٌ وطبيبٌ
ملأت به الدنيا هوىً وصبايةً
وهللتُ فيه الحب وهو جنيبٌ
وما صدّ عنى أو نوى دون حاجتى
ولكن أخلاق الجميل غريبٌ
تمدهده كالطفل إن أنّ أو شكّا
ويُغرى به الأشجان وهو طروبٌ
وإخوان سجنٍ قَبَّحت من وجوههم
همومٌ توألى دائماً وخطوبٌ
فمنظرهم أضحوكة للباسهم
ومخبرهم فى الحادثات رهيبٌ



لقد كنت فيهم (يوسف) السجن صالحاً
أفسر أحلاماً لهم وأصيبُ
وكم ليلة في السجن بين صباحها
وبين دجاءها مشرق وغروبُ
وكل ضياء في الغيابة خادعُ
ففجر الأماني للسجين كذوبُ

ومرة أخرى يتمثل قول سيدنا يوسف (السجن أحب إلي) بعد أن استقر
مقامه فيه فيقول:

لذتُ بالسجن بقلب بهرج
مرحبا بالضيق دون الفرج
ها هنا داري وأهلي وهما
كل ما أرجو ليوم الحرج
ولج السجن برئ طاهرُ
وأخوزلاته لم يلج
هكذا الدنيا رأينا ليلتها
في صباح واضح منبلج
رب لا نشكو.. فكم من محن
لم نجد في كربها من فرج



قد فضضنا سترها فانكشف

من يرح في هجرة الهم يج

وكانت فترة السجن حافلة بالقصائد التي تصف وتسقط على الواقع
الخارجي من وجدان الشاعر..

وقد كان من بين السجناء.. سجين أعمى.. قد ضاق بالسجن.. وتمرد
على السجنان.. فأذاقه مر العذاب والتنكيل.. فقال الديق معبراً عن ذلك
الموقف:

سجنوا عليك الكون أم سجنوكا
لو أنصفوا في ظلمهم قتلوكا
تخذوا عذابك أو نعيمك شهوة
وتقاسموك كأثم خلقوكا
نم يا ضريراً ففي عمك سعادة
ألا ترى عيناك من ظلموكا
ألا ترى أثر الطغاة وجورهم
عرضاً ذبيحاً.. أو دماً مسفوكا
صادوك فاتخذوك لعبة ملجأ
كم عذبوك به وكم ضربوكا



لم يرحموك على عماك كأنهم
حسبوا العذاب على العمى يهنيكا
في (الغرب) كل اللاجئين تخالهم
بين النعيم المستقر ملوكا
وهم بمصر معذبون أذلة
ملكوا من الرق المهين صكوكا

ويخرج الديب من السجن مرة أخرى إلى حياة التشرذم..

فلما اشتدت عليه العلة.. حنا عليه بعض الأخيار من محبيه فحملوه إلى
منفى آخر وهو (مستشفى الأمراض العقلية) بدعوى أنه مريض.. ليعالج
هناك علاجاً ييغض إليه (الكوكابين) ويعيد إليه الحياة من جديد.. وفي هذا
المستشفى (المارستان) بالخانكة.. يقول:

رعاك الله (مارستان) مصر
فإنك دار عقلٍ لا جنونٍ
حويت الصابرين على البلايا
ومن نزلوا على حكم السنين
ومن هبطوا بهم من صرح عزٍ
إلى أغلالٍ إذلالٍ وهونٍ



تراهم خائفين فإن أثيروا
بمهزلة فآسادُ العرين
وإن سئلوا عن الأسرار كانوا
كمن أخذوا عن الروح الأمين
وكم في مصر من غرّ غبيّ
تمتع بالجميل وبالثمين
ولو عدلوا لأمسي (خانكيا)
يعذب بالشمال وباليمين

لقد كانت مصر قبل ثورة 1952 يخيم عليه الفساد والظلم والاستغلال.. ولم يصمت الديدب أمام هذه الأوضاع.. بل كان قلمه الساخر يوجه صرخاته إلى الحكام والفاستدين.. ويدعو الشباب إلى التمرد والعصيان.. فيقول:

لا ضارب منكم ولا مضروب
أنتم جميعاً معشر مغلوب
وإذا العصى غدت سلاح حكومة
فمن الأعباد شعبها المنكوب
ثم يخاطب الحكام بقوله:
لستم لنا الأكفاء أنتم عصبّة
ما في جهادكم لمصر نصيب



حتما سيأخذكم على أعناقكم

يوم بأخذ الظالمين رهيبُ

يوم الشباب الطامحين وإنه

كغد.. لمن يرجو سنه قريبُ

وقد كتب هذه القصيدة عام 1938 ساخطا على سوء الحكم والفساد السياسي الذي كان سائدا في مصر آنذاك..

ولم يسلم الإنجليز من لسانه كذلك بل وجه إليهم خطابه قائلاً:

سجنتم بلاد النيل لن نلق منجداً

يقيها من البأساء واليوم تطلقُ

لئن خلتُم عمق السياسة نافعاً

فإن قوى الإيمان بالحرب أعمق

وإن نلتُم بالكتب عهداً وموثقاً

فإن عهدَ السيف أوفى وأصدقُ

ولم يترك الديب شيئاً في المجتمع لم يعبر عنه.. عبر عن فقر الفلاح وعن مأساة فلسطين وعن الشباب يدعوه إلى الثورة.. وعن فضائح التموين.. وعن الخونة.. وعن مفهوم الوطنية.. وكان في كل ذلك صادقاً مع نفسه ومع قارئه.

ويصاب عبد الحميد الديب بالمرض ويموت وحيداً في فراشه في أحد أيام عام 1943 لتطوي صفحة من صفحات الشعر الذي عاش وسط المحن والأشواك والحرمان والسجن.